الفصل الرابع

الإسلام والمسيحية الشرقية

تحت تأثير حماستها المتقدة بفعل الأفكار الاجتماعية والسياسية والدينية الجديدة التى أتى بها الإسلام، شرعت الجيوش العربية فى التقدم حثيثا خارج شبه الجزيرة العربية، وباتجاه الشمال. وهنا نشهد لقاء أو مواجهة تقليدية فيما بين التالد والطريف. ولقد كانت سوريا، تلك المقاطعة البيزنطية الكبرى، الموضع الذى شهد أول مواجهة عسكرية بين المسيحية والإسلام. وبالنظر إلى اكتساح الجيوش العربية شمالا داخل الأراضى البيزنطية فى المشرق، تتضح لنا بعض الملامح المذهلة.

أولاً، مدى المشاعر العدائية التي يضمرها الكثير من أهالي إقليم الهلال الخصيب ذي الأغلبية السامية تجاه محاولات الغرب السيطرة عليهم –ومن وجهة نظر تلك الأقاليم، فلا يقتصر "الغرب" على روما فحسب، بل يمتد ليشمل القسطنطينية "اليونانية" كذلك. وهنا، فنحن نتحدث عن بلدان ذات تاريخ وحضارة شرقية وسامية بالأساس– حيث ظلت طويلا جزءا من المنافسة الصراعية المحمومة بين مختلف الإمبراطوريات الفارسية من جهة، وبين اليونان من جهة أخرى. كذلك، فلا توجد هنا مشاعر ارتياح أو مودة تجاه "بيزنطة" أو "اليونانيين". إذا، فنحن نشهد هنا معاداة متجذرة للغرب –بمعنى مقاومة محاولات الغزو أو الهيمنة من قبل اليونان أو روما– حتى قبل أن يظهر الإسلام على مسرح الأحداث.

ثانيا، نشهد مرارا كيف مثل الدين وقود المقاومة واستنهاض الهمم ضد روما وبيزنطة. وقد احتضنت المدن المشرقية باستمرار ضروبا من الهرطقة بما يدل على

تجذر روح المقاومة بداخلها. فلم يكن الأمر أنها تتبع العقيدة التى تقول بأن المسيح ذو طبيعة واحدة، ومن ثم معارضتها للقسطنطينية. وإنما الواقع أنها كانت تخالف القسطنطينية، ومن ثم استعدادها لاحتضان عقائد تعادى صيغة الحكم المركزى التسلطى. لذا، فقد كان الفتح الإسلامى لتلك المدن المشرقية الكبرى داخل الإمبراطورية البيزنطية ميسرا بفعل ما ترسخ من مشاعر العداء تجاه بيزنطة لآماد طوال.

وأخيراً، تبدو غزوات الجيوش الإسلامية، فى جانب منها، كما لو أنها قد أحدثت تغيرات فيما يخص العالم الدينى – أى تغيرات دينية، ولكن الحقيقة، أنها نزعت فى ذلك الوقت نحو إحداث تغيير فى كيفية هيمنة الدولة وسطوتها. وتمدنا آليات انتشار الإدارة والحكم العربيين برؤية ثاقبة تمكننا من إدراك عدم احتلال الدين للقلب من تلك الصراعات، وبالمقابل توضح تلك الآليات كيف كان الإسلام،

بالأساس، الراية الأحدث على مسرح الأحداث ... تلك الراية التى انضوت تحتها الصراعات الجيوبوليتيكية الراسخة بإقليم الشرق الأوسط والتى تم إذكاء نيرانها على الدوام، فلقد كانت "الجائزة الكبرى" التمتع بثمار الحكم والسيطرة.

وبالطبع، فلا يستقيم استبعاد دور الإسلام نهائيا من ديناميات الصراع بين حكام إقليم الشرق الأوسط ومدنه ومقاطعاته. فالإسلام قد مثل، وعلى نحو فريد، روحا جديدة فى الأفق. بيد أن إقليم الشرق الأوسط، فى الواقع، كان متهيئا لاستقبال قوة محفزة جديدة قادرة على دفع الحكام المحليين، وكذا المدن للنهوض والمقاومة ضد السلطة المركزية للقسطنطينية. إن الأيديولوجيا، أينما وجدت، غالبا ما يتم استخدامها وتطويعها لخدمة الأغراض الجيوبوليتيكية المحلية. وبعبارة موجزة، نشهد هنا الدور الذى اضطلعت به المشاعر المناهضة لبيزنطة فى تيسير الفتح الإسلامى للكثير من الأقاليم السامية.

سوريا وثقافة الشقاق

وتعد سوريا مثالا جيدا فى هذا الصدد، إذ أوى الإقليم العديد من مشاعر عدم الارتياح المضمرة، على تنوعها، والتى تفجرت، بشكل دورى، على امتداد القرون المتعاقبة. وقد كانت الغزوات التى قامت بها جيوش الإسلام كالشرر الذى ساعد على تأجيج نيران الثورة ليس فقط ضد القسطنطينية، بل وضد روما أيضا. وتعطى شخصية سوريا المتسمة بإرث ممتد من المشاكسة والخلاف، والكامن فى مناخها الجيوبوليتيكى، تفسيرا للمشاكل اللانهائية التى واجهت الإمبراطورية البيزنطية فى محاولاتها للدفاع عن أراضى ذلك الإقليم ضد الغزوات الإسلامية الأولى.

فما الذى هيأ سوريا لمثل هذا الدور الثورى؟ تعد سوريا واحدة من أبرز نقاط الالتقاء الحضارى، حيث تتعانق الأيديولوجيا مع معطيات القوة والنفوذ لتضفى على "دمشق" دورا فاعلا فى استجلاء سياسات إقليم الشرق الأوسط. وقد امتد نطاق

سوريا، قديما، ليشمل ما يعرف الآن بسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وإسرائيل وغربى العراق ككيانات سياسية مستقلة. وعلى امتداد التاريخ، انضوى تحت لوائها العديد من أطياف القوى التى أضفت عليها طابعا فريدا وشخصية عنيدة. فاعتبارا من عام ٣١٢ قبل ميلاد المسيح، كانت سوريا قلب الإمبراطورية الهيلينستية السلوقية مترامية الأطراف، والتى خلفت أجزاء من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتى امتد سلطانها من الأناضول وحتى شبه القارة الهندية على امتداد أكثر من ٢٥٠ عاما. كذلك، فقد كانت سوريا جزءا من الشرق مثلما كانت جزءا من الغرب لتأثرها، على وجه الخصوص، بالحضارة الفارسية وحضارات الشرق، ومثلت كذلك النقطة الحدودية، قاعدة الانطلاق للتوسع اليونانى صوب المشرق ضد الحضارة الفارسية، والحضارات السامية بالإقليم.

وتعطى مدينة "الرها" فى شمال سوريا مثالا واضحا على العداء الشديد الذى يضمره أهلها لهيمنة الغرب وسيطرته. وقد كانت "الرها" حامية عسكرية يونانية للإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيد أن اللغة اليونانية السائدة لحكام المدينة تم الاستعاضة عنها، على نحو تدريجى، باللغة السريانية، وهى لغة سامية قريبة الشبه بالآرامية، وبذا شرعت الثقافة السريانية فى إضعاف مكانة اليونانية فى المواقع التى انتشرت بها. ورغما عن وجودها ضمن نطاق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا أن ولاء "الرها" وتعاطفها غالبا ما اتجه إلى الشرق، وتحديدا إلى إيران الفرثية الزرادشتية، لا إلى بيزنطة.

على أنه لا يمكن القول بأن "الرها" كانت مناهضة للمسيحية، ومن ثم مناهضة لبيزنطة. بل لقد كانت "الرها" أول ولاية مسيحية فى العالم فى ظل حكم "أبجر الأسود"، والتى أسستها القبائل العربية والنبطية فى عام ١٣٢ قبل ميلاد المسيح. ولقد كانت الإرساليات التبشيرية المسيحية ، والتى انطلقت من "الرها" هى من نشر المسيحية النسطورية شرقا صوب بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، حيث سيكون للكنيسة النسطورية مقرا بها. إذاً، فقد كان ذلك الإقليم أحد أوائل التجمعات

المسيحية، بيد أن الكنيسة النسطورية الناطقة بالسريانية كانت شرقية النزعة من الوجهة الحضارية والثقافية بمعزل عن نفوذ الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية الناطقة باليونانية. وفى عام ٤١٠م، خطت الكنيسة النسطورية خطوة على طريق الاستقلال برفضها الانتساب أو التبعية "للأساقفة الغربيين". حيث انصرف المقصود "بالأساقفة الغربيين" ليس إلى روما، بل إلى السلطات البيزنطية ذاتها والتى اعتبرها النساطرة كقوة غربية. ولقد كانت تلك الخطوة النسطورية باتجاه الاستقلال الدينى إشارة سياسية واضحة، وإن تزيّت بإهاب دينى.

على أن "الرها" لم ترتض احتضان هرطقة وحيدة، فعمدت لاحقا إلى اعتناق هرطقة أخرى توحيدية النزعة، ألا وهى عقيدة "الطبيعة الواحدة للمسيح" ... تلك العقيدة التى انتشرت، على نحو سريع، فى ربوع سوريا فى قرون لاحقة رغما عن اعتراض القسطنطينية الشديد، والتى أصرت على الإيمان بالطبيعتين المتمايزتين والمستقلتين للمسيح. وبذا، فقد أصبحت العقيدة الدينية اختبارا لمدى الولاء السياسى لمعتنقها. وقد عكست الطبيعة الهرطقية الراسخة للمسيحية السورية شخصيتها شديدة الاستقلالية. فكما أوضح الباحث الألمانى أرتور فوبوس : "تفصح المنابع الأولى للمسيحية السورية عن روح وثابة ووعى ذاتى يتوق إلى الاستقلالية، وتصطبغ كل صفحة من صفحات التاريخ بتلك الروح وذلك التوق". وفى بعض كتابات أحد القادة من مسيحيى سوريا الأوائل، نجد "الكراهية لكل ما يحمل الصبغة أو الشعار اليونانى أو الرومانى ... فالاستقلالية والحكم الذاتى هما سمتا التوجه السورى المبكر لمفهوم الكنيسة". وتأتى تلك الأحداث جميعا فى سياق زمنى يسبق الإسلام، والذى سيتبنى بيسر ثقافة معاداة الغرب ومناهضته، بل والإمبراطورية البيزنطية ... تلك الثقافة المنتشرة فى أغلب أرجاء إقليم الهلال الخصيب.

على أن الأمر لم يقتصر على "الرها". فبالنظر إلى ما حدث فى تدمر، وهى مدينة سورية شهيرة، نجد أنها أجبرت الإمبراطورية اليونانية بالفعل على الإذعان لها خلال ثورة كبرى جرت أحداثها فى منتصف القرن الثالث الميلادى، قبل

الانقسام ما بين شرق وغرب، إذ كانت تدمر مصدر تهديد بإعادة صياغة هيكل القوة برمته فى شرقى المتوسط. فقد ظلت تدمر،كمحور تجارى رئيسى فى سوريا، نقطة التقاء الحركة التجارية فيما بين بلاد فارس، والهند، والصين، وروما. وقد تبنت تدمر السريانية كلغة لها، بما يعكس ثقافتها "السامية" المزدهرة وتأثرها بالحضارة الفارسية مثلما هو تأثرها بحضارة روما والحضارة اليونانية. وفى عام ٢٦٩م، دشنت زنوبيا، ملكة تدمر الأسطورية، حملة عسكرية كبرى ضد الحكم الرومانى. فمن كانت زنوبيا تلك؟ يبدو أنها انحدرت من سلالة ملكية من قرطاج (تونس اليوم) – تلك المدينة التى انصهرت فى بوتقتها مشاعر الكراهية والعداء لغريمتها المتوسطية الرئيسية، روما، والتى دمرتها قبل ذلك بعدة قرون.

وفى غضون سنوات قلائل، اجتاحت جيوش تدمر أراضى شاسعة، سوريا بأكملها، ومصر، ونصف الأناضول. وبالفعل، فقد مثلت تلك "الإمبراطورية التدمرية" لسنوات قليلة – كامل الثلث الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، والتى قسمت إلى ثلاثة أقاليم متمايزة. وقد كان يمكن لتدمر أن تخلف الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وهو الحدث الذى لو كتب له النجاح آنذاك، كان سيرسخ الحكم المسيحى السريانى/السامى فى شرق المتوسط عوضا عن الحكم البيزنطى اليونانى. أما الملكة الجميلة زنوبيا فقد هزمت على أيدى القوات الرومانية حيث أرسلت إلى روما مغللة بأصفاد ذهبية ليتم العفو عنها بعد ذلك وتصبح رمزاً رائداً من رموز المجتمع الرومانى، على الرغم من سحق إمبراطوريتها منذ زمن بعيد. بيد أن روح الثورة المنتشرة فى أجزاء كثيرة من الأراضى السورية ظلت فتية ومتأججة، فى مواجهة روما، وكذلك فى مواجهة القسطنطينية. وقد انتهزت الإمبراطورية الفارسية الميزة الاستراتيجية التى صبغت الخلاف داخل الإمبراطورية البيزنطية للقيام بالدعم العلنى للمسيحيين النساطرة وإعطائهم حق اللجوء إلى الأراضى الفارسية. وبذا، فقد كان الدين هو أيديولوجية تلك الحقبة، بما له من دور داعم للمصالح الجيوبوليتيكية المتضاربة.

إن الخلاف السياسى والأيديولوجى والدينى مع روما واليونان كان مضمرا فى نزوع الثقافة الدينية السورية نحو رؤية أكثر توحيدية للمسيح -لأن يكون ذا طبيعة واحدة (إما إلهية تماما، أو بشرية تماما)- وكذا رفض معتقدات القسطنطينية المركبة القائلة بوجود الثالوث (الأب والابن والروح القدس ككيان واحد). وسرعان ما انتشرت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح على امتداد مناطق شاسعة : الأناضول، سوريا، المشرق، مصر - حيث حظيت بدعم جماهيرى وشعبى كبير، واستمرت قائمة، بلا شك، إلى يومنا هذا.

أما التطور التاريخى لعقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح فلم تكن أقل إثارة وقوة. فقد تم احتضان تلك العقيدة من قبل الإسكندرية ... تلك المدينة المصرية التى كانت إحدى أبرز المنافسات للاستئثار بالنفوذ الكنسى فى شرقى المتوسط. كذلك، فقد ناصرت الإسكندرية، وبشدة، عقيدة الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح - تلك العقيدة البسيطة يسيرة المأخذ والتى كان لها رواج شعبى كبير فى سوريا ومصر والأناضول. أما القسطنطينية، فقد تبرأت من تلك العقيدة خلال أعمال مجمع "أفسوس" الأول فى عام ٤٣١ . بيد أن سياسات الكنيسة ورجالاتها قد سلكت دروبا متباينة، فبعد ثمانية عشر عاما، وخلال انعقاد أعمال مجمع "أفسوس" الثانى، حدث تغيير وتعديل ثيولوجى انبنى على قاعدة سياسية، فأصبحت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح معترفا بها رسميا، كما أصبح هناك من يعتنقها. ومع كل تحول كبير فى تبنى العقائد المتباينة، تصعد رموز كنسية مؤثرة، وتسقط أخرى، بما كان من شأنه تأجيج الصراع. وخلال الاضطرابات السياسية التى أعقبت ذلك بأربعة أعوام، قامت الكنيسة بتغيير موقفها ثانية بشأن عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح، وذلك خلال انعقاد أعمال مجمع "خلقيدونية" فى عام ٤٥١، لتعلن أن تلك العقيدة هى من قبيل الهرطقة والتجديف. وبذا، فقد ظهر رابحون وخاسرون جدد، كذلك، فقد تم عزل بعض الأساقفة الرئيسيين ورموز الكنيسة من مناصبهم، وهو الأمر الذى أدى إلى انعكاسات وعواقب سلبية أثرت على قوة المدن وهيمنتها التى

كانت تحتضنهم. إلا أن القصة لم تنته بعد. ففي هذه المرة، ورغما عن الجهود الفائقة المبذولة لإعادة الصياغة الثيولوجية لإحداث نوع من التوافق والمواءمة فيما بين طرفي النزاع، إلا أن أعدادا كبيرة من معتنقي عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح رفضوا بتاتا قبول سيطرة القسطنطينية وأحكامها. وفي النهاية، فقد قاموا بشق عصا الطاعة بوجه القسطنطينية، وعمدوا إلى إعادة تأسيس كنائسهم المستقلة، على تنوعها، ليعرفوا بالأرثوذكس الشرقيين، بصفة رئيسية، في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية.

وكما كانت توصيات مجمع "خلقيدونية" شديدة الوطأة على عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح، فقد اتخذ المجمع أيضا قرارا صادما لروما إذ أعلن أن القسطنطينية هي "روما الجديدة"، ومساواتها بروما. وبالفعل، فقد كان للقسطنطينية أن تكون "روما الوحيدة" في ظل انهيار البقية المتبقية من الإمبراطورية الرومانية في الغرب أمام هجمات الهمج. أما مفهوم "روما الجديدة" فلن يفقد صداه الرنان أبدا : فبعد ألف عام، ومع سقوط بيزنطة (الإمبراطورية الشرقية) ذاتها، ستنتحل موسكو لنفسها لقب "روما الثالثة"، بما يدل عليه من امتداد الإرث المتعاقب للهيمنة المسيحية.

ولقد كانت رموز المسيحية القوية –البابا، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومختلف الأساقفة والبطاركة على تعدد مصالحهم– لديها في جعبتها الكثير في تلك النقاشات والجدالات من مجرد الشئون الدينية. فعلى سبيل المثال، فإن الخلاف المعتقدي حول طبيعة المسيح وماهيته قد أرسى الأساس لتطلع البابا إلى السيطرة. فإذا كانت طبيعة المسيح إلهية فحسب، فكيف، إذاً، يزعم البابا كونه "الحبر أو الكاهن الأعظم"؟ فلا يمكن أن يكون ثمة كاهن للمقدس ذاته – أما إذا كان المسيح ذا طبيعة بشرية، فمن الطبيعي أن يكون هناك سلسلة متعاقبة بداية من القديس بطرس مرورا بآباء الكنيسة، وحتى البابا ككاهن للمسيح ذي الطبيعة البشرية.

وبالفعل، فنحن نشهد هنا صراعا هائلا على مقاليد الهيمنة والقوة تدور رحاه وفق مستويات ثلاثة : الأول، صراع بين روما والقسطنطينية حول أيهما، بالفعل، يمثل الإمبراطورية الرومانية الحقيقية بما فى ذلك أحقية قيادتها، الثانى، صراع يدور فى الكنيسة الشرقية بشأن العقيدة فى أرجاء الإمبراطورية الشرقية، وأخيرا، صراع القوى المسيحية الثورية والهرطقية فى الشرق ضد الهيمنة السياسية القسطنطينية فى المقاطعات الشرقية. كان هذا هو المشهد الذى واكب نشأة الإسلام فى إقليم ممزق بفعل الصراعات السياسية، وما انطوى عليه الإقليم من تهيؤ تاريخى وحضارى وسياسى للقادم الجديد ... ذلك القادم الذى سيضيف إلى، وأيضاً سيرث، المعادلة المركبة بالفعل لصراعات القوى والأيديولوجيا.

الإسلام يغزو أراضى بيزنطة

تكشف الطريقة التى توسع بها الإسلام بالفعل جليا عن المنظومة المعقدة للتحول الدينى والتغير الحضارى، فضلا عن إفصاحها عن طبيعة التعايش والمواءمة الدينية. لذا، فلا يعدو المصطلح السطحى المبسط "الحدود الدموية للإسلام" والذى تبناه صموئيل هانتنجتون إلا أن يكون صورة تبسيطية غير كاشفة عن التداخلات السياسية والاجتماعية المتشابكة التى جرت بالفعل.

فعقب الانتفاضات البطولية المبكرة فى "الرها" و"تدمر" ضد الهيمنة البيزنطية، كانت دمشق المحطة التالية. وهنا أيضا نشهد بواكير حركة الجماعات الدينية المعارضة فى تسهيل غزو المسلمين للمدينة فى عام ٦٣٥ – فغدت بذلك الأولى ضمن المدى الكبرى الواقعة تحت أيدى القوات العربية المسلمة.

ولقد وقعت دمشق بالفعل فى أيدى الفرس قبل ذلك بعشرين ونيف عاما، بعون من اليهود ومسيحيى "الطبيعة الواحدة" المسيح ... والذين ضجوا من عسف بيزنطة وضرائبها. وبرغم أن المدينة قد آلت ثانية إلى بيزنطة، إلا أنه سرعان ما سقطت مرة أخرى، ولكن فى أيدى المسلمين العرب فى هذه الجولة. كذلك، فقد تم

تسهيل الغزو العربي، أيضا، من داخل المدينة بمساعدة المعارضة المتمثلة في النساطرة ومسيحيي "الطبيعة الواحدة". على أن المعتقد الإسلامي بشأن الطبيعة البشرية للمسيح ورفضه الصارم لما عداها لم يكن ليمثل مفاجأة للسكان المسيحيين المنغمسين بالفعل في جدالاتهم وهرطقاتهم بشأن طبيعة المسيح، وبذا فقد كان الإسلام حلقة جديدة في سلسلة النقاشات المحتدمة. وقد كان ما يشغل البال ليس ثيولوجية الإسلام، بل نفوذه السياسي وطبيعة نظام الحكم ونوعيته المفروض من قبله.

وبعد جدال واسع، تم إقناع القادة العرب المسئولين عن حصار دمشق بأن قبول استسلام المدينة سلميا يعد حصيفا من الوجهة الاستراتيجية إذا كان المراد تجنب المقاومة الشرسة من قبل مدن سورية أخرى أثناء تقدم العرب. لذا، وبعد مواجهات ممتدة فيما بين الجيوش العربية والبيزنطية، وافقت المدينة، في النهاية، وفي عام ٦٣٤ على الاستسلام بعد أن وعد القائد المسلم خالد بن الوليد بما يلي :

"حين دخول المسلمين، سيكون الأهالي آمنين على أنفسهم، وممتلكاتهم، ودور العبادة، وأسوار المدينة، فلن يتم تدمير أي مما سبق. وسيكون هذا الوعد أمام الله ورسوله وأمام الخليفة والمسلمين الذين سيعاملونهم بالحسنى كإخوة طالما كانوا يدفعون الجزية".

أما أورشليم، فكانت التالية حيث سقطت في أيدي القوات العربية في عام ٦٣٨ . وقد وافقت المدينة على الاستسلام إذا ما تعهد الخليفة ذاته بسيادة الأمن بها. وقد دخل الخليفة عمر بن الخطاب بصحبة بطريركها، وأبرما معا اتفاقا يضمن أمن المدينة ويحفظ للمسيحيين حقهم في العبادة وممارسة طقوسهم الدينية. وقد أفادت المصادر العربية بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أزال بقايا معبد الهيكل اليهودي المهجور، وأدى الصلاة هناك، وأمر لاحقا ببناء مسجد في الركن الجنوبي الغربي مما كان يشغله المعبد.

الهداية واعتناق الإسلام

إن التحول إلى اعتناق الإسلام فى تلك الأقاليم كسوريا وغيرها من أقاليم خضعت فى السابق لبيزنطة - ليكشف عن الكثير بشأن القوى السياسية والحضارية والتفاعل فيما بينها. وكما أشرنا آنفا، يكون من الحماقة أن نتصور، على نحو مبسط، وقوع "مسيحيين مخلصين وأوفياء فى أيدى قوات مسلمة مناهضة للغرب"، وهى الرؤية الشائعة التى يروج لها الغرب. فلم يكن المسيحيون فى تلك الأقاليم السامية بالضرورة سعداء أو أوفياء لبيزنطة، بل كانوا مهيئين لمناهضة الغرب. أما النظريات المبسطة عن "إسلام فى مواجهة الغرب" كثنائية، فتنهار هنا حين نواجه حقائق الأمور. فبالفعل لم يكن للإسلام إلا القليل من المواجهات مع القوة العسكرية الغربية أو البيزنطية، إذاً فلم يكن ثمة استعداد مسبق أو تهيؤ لمناهضة الغرب كما حدث داخل قطاعات كبيرة من الإمبراطورية البيزنطية. وفى سوريا، سرعان ما سقطت مدن كبيرة أخرى فى أيدى المسلمين لتتراجع حدود الإمبراطورية، ولتبدأ سلسلة ممتدة الحلقات من التحول إلى اعتناق الإسلام فى الإقليم.

ومرة أخرى، ترسم الصور الشائعة التى يروج لها الغرب للغزو الإسلامى التحول إلى اعتناق الإسلام بكونه قد جرى تحت حد السيف. أما حقيقة الأمر فجد مختلفة... إذ تشبه عمليات تحول إلى اعتناق أديان أخرى شائعة فى معظم الحضارات والثقافات الدينية حين تتبدل الأحوال السياسية بها على نحو كبير. ففى العقود الأولى، تم المبادرة إلى إرساء السلطة السياسية الإسلامية عقب عمليات الغزو العسكرى مباشرة. ففى غضون ثلاثين عاما من وفاة النبى محمد، اكتسحت الجيوش العربية المسلمة أراضى شاسعة فبلغت على امتداد ساحل المتوسط الأراضى التى تشغلها تونس حاليا، وحدود القوقاز وشطر الأناضول شمالا، وحدود باكستان الحالية شرقا. وبذا، انهارت الأنظمة القديمة وتهاوت ليحل محلها حكم إسلامى يقوم عليه حكام مسلمون. بيد أن عملية التحول الفعلية إلى اعتناق

الدين الجديد، إن على الصعيد الفردى أو ذلك المجتمعى، قد تأخرت (العملية) طويلاً. ففى كتابه البارز "تاريخ المجتمعات الإسلامية"، أشار ايرا لابيدوس إلى أن "الغزوات، إذا، كانت انتصارات حربية للمسلمين على قوى منهكة عسكريا ... تلك الانتصارات التى عززت فى العقود الأولى من حكم العرب نظرا لشعور أهالى الإقليم بالارتياح والرضا لتقبل النظام الجديد". ولقد أدت عوامل الاستياء الداخلى بالإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية -النساطرة وأنصار "الطبيعة الواحدة" فى سوريا، والمسيحيون واليهود فى إيران- إلى تسهيل الإطاحة بهاتين الإمبراطوريتين، مدينة تلو الأخرى، خلال زحف المسلمين عليهما. ووفقا لميرلين شفارتز، أستاذ التاريخ الإسلامى الوسيط بجامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن معظم اليهود داخل الإمبراطورية البيزنطية كانت تتملكهم مشاعر الاستياء إزاء ما عانوه من اضطهاد بها، لذا فقد رحبوا بالجيوش الإسلامية والتى سيتبدى أن حكمها قد عمل على تعزيز وازدهار، بل وإعادة بعث للحضارة والثقافة اليهودية.

وبالإضافة إلى ذلك، وخلافا لما هو متوقع، لم يكن تحول الشعوب المنهزمة إلى اعتناق الإسلام ، مطلقا، الهدف المباشر للمنتصرين العرب، بل كان الهدف فرض الهيمنة وبسط السلطة. وهنا، وبالفعل فنحن نتحدث عن التغيير الدنيوى -تغيير الحكام- بأكثر مما نتحدث عن الدين فى ذاته على المستوى الاجتماعى. وكما يشير لابيدوس، "فإن المنتصرين العرب لم يكونوا يريدون تحول المنهزمين إلى اعتناق الإسلام بقدر ما كانوا يرغبون فى خضوع غير المسلمين لهم. وفى البدء، كان أولئك العرب غير راضين بإسلام المنهزمين على الفور، لأن "المسلمين الجدد" سيعملون على تحجيم المكاسب الاقتصادية وامتيازات المنزلة الجديدة بالنسبة للعرب".

وبالفعل، كان ثمة حافز لحكام تلك الأقاليم من العرب ألا تمتد مزايا ومنافع أن يكون المرء مسلما للأهالى ككل. فالقوى العربية تمتلك من الامتيازات والمنافع ما لا تمتلكه الفئة المهزومة، حيث يتوجب على تلك الفئة دفع الجزية المفروضة على غير

المسلمين كبديل عن انخراطهم فى الخدمة العسكرية، ومقابل تمتعهم بالحماية والأمن من قبل المسلمين. وكان على الأقليات فى المجتمع الانصياع للحكم السياسى للمسلمين، والامتناع عن أية جهود من شأنها تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية. وقد أشار المؤرخ الشهير "أرنولد توينبى" فى مؤلفه الجليل "دراسة التاريخ" إلى :

"أنه فى المقام الأول يمكننا أن نسقط من الحسبان اتجاهاً – كان شائعا فى المسيحية –للمبالغة فى تقدير مدى استخدام القوة وحدودها فى نشر الإسلام، فمظاهر الالتزام بالدين المتطلبة من قبل خلفاء النبى محمد كانت مقصورة على أداء عدد محدود من الشعائر والطقوس غير المرهقة ... وفى الأقاليم المهزومة فى الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية، لم تكن البدائل المطروحة "الإسلام أو الموت" ... بل "الإسلام أو الجزية"– وهو طرح تم الإشادة بكونه تنويريا حين طبق بعد قرون عديدة فى إنجلترا بواسطة الملكة إليزابث الأولى، والتى لم يكن يعنيها أمر الدين كثيرا".

لم يكن العرب يريدون اقتسام القوة والسلطة فى بداية الأمر، إذ حافظت الإدارة الإسلامية الجديدة على الوضع القائم دونما أدنى تغيير عما سبق إلا فى شكل الحكم الجديد – وهو الاتجاه السائد والشائع لدى جميع الشعوب التى تحيا فى أقاليم تتداول فيها السلطة فى مستوياتها العليا سجالا من خلال غنائم الحروب، مع عدم تغيير شكل الحياة فى المستويات الأدنى، بالضرورة. وفى حقيقة الأمر، لم يكن هناك الكثير من التحول إلى اعتناق الدين الجديد. فكما يقرر لابيدوس :

إن المبدأ الثانى من مبادئ الخليفة عمر بن الخطاب بشأن الاستيطان يذهب إلى ضرورة إعطاء الشعوب المهزومة حرياتها قدر الإمكان مع أدنى تدخل ممكن. ويعنى ذلك أن المسلمين العرب، وبخلاف ما هو شائع، لم يحاولوا أن يجبروا أحدا على اعتناق الإسلام. وقد ضرب النبى محمد المثل والسابقة فى سماحه لليهود والنصارى فى شبه الجزيرة العربية بالبقاء على دياناتهم إذا ما دفعوا الجزية ...

ففي زمن الفتوحات، كان يراد للإسلام أن يكون دينا للعرب، كدليل على التمايز ووحدة الطائفة. ولم يكن لدى العرب حماسة شديدة تجاه التبشير بالدين الجديد، فلما أن كانت التحولات إلى اعتناقه، حدثت الارتباكات إذ خلقت مشاكل تتعلق بمنزلة من اعتنق الدين الجديد، كما أدت إلى المطالبة بالحق في الامتيازات المالية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في ذلك الزمن المبكر، كان الفاتحون العرب الأوائل ما يزالون متمسكين بشدة بانتماءاتهم الإثنية حيث رأوا الإسلام "كدين عربي" وأنهم الفئة المختارة التي خصت بتلقيه. وتعكس تلك النظرة إدراك العرب للوحي المنزل على موسى بدين يكون لليهود دون سواهم. إذا، فقد كان ينظر للإسلام على أنه جائزة العرب الممنوحة لهم كونهم المفضلين. بيد أن ذلك الوضع للعرب المفضلين، والمكانة الأدنى مرتبة من حيث حقوق المواطنة حتى لغير العرب المتحولين إلى اعتناق الإسلام- هما ما أدى إلى اعتمال الضغينة بشدة في النفوس ... وقد أدت تلك التوترات، في النهاية، إلى الإطاحة بالدولة الأموية ذات التوجه العربي على يد الدولة العباسية الأكثر تنوعا من الوجهة الإثنية، وذلك في عام ٧٥٠ . وبالطبع، فإن هذا الوضع التفضيلي للعرب في الإسلام يخالف تماما ما أقره النبي في خطبة الوداع :

أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

إن تاريخ الإسلام يمثل تحولاً تدريجياً من المنظور الإثني لعمليتي الغزو واعتناق الدين الجديد باتجاه النهج المثالي لعالمية الإسلام، إلا أن مشكلة إصرار العرب على فكرة كونهم متفوقين رغما من أخذها بالانحسار، إلا أنها لم تخفت تماما على المستوى الشعبي عند كثير من العرب. وقد نبعت تلك الفكرة من حقيقة

أن الإسلام قد ولد فى شبه الجزيرة العربية، وأن القرآن، السفر الحاوى لكلمات الله، قد أنزل بلسان عربى، وأن النبى محمداً عربى، إلى جانب بلاغة اللغة العربية شديدة الثراء والتى لا نظير لها كما اشتمل عليها القرآن، والتفوق المذهل الذى أحرزته الفتوحات العربية الأولى. بيد أن الحكمة التى ينطوى عليها الحج كفريضة دينية إسلامية تكمن فى جمع المسلمين من كل بقاع العالم، على اختلاف ألسنتهم وأعراقهم، فى مكان واحد لعبادة ربهم. كذلك، فقد أسهمت وسائط الاتصال الحديثة فى زيادة وعى المسلمين وإدراكهم للمساهمات الكبرى لغير المسلمين فى شمولية الحضارة الإسلامية بغض الطرف عن الخصوصية الإثنية.

فكيف، إذاً، سارت عملية التحول نحو اعتناق الدين الجديد؟ تنطوى جميع عمليات اعتناق دين جديد على تعقيدات جمة، إذ تشتمل على اعتبارات ذاتية وأخرى دينية. وقد لاحظ لابيدوس ظاهرتين متمايزتين فى هذا الخصوص. فقد كان التحول نحو اعتناق الإسلام من قبل الأرواحيين والمشركين فى تلك البقاع الصحراوية يكمن فى الإغراء الذى ولدته الرغبة فى أن يصيروا جزءا من حضارة عظيمة وثرية حيث كان هناك الكثير من المغريات للانضمام إلى صفوف المسلمين. واتسمت تلك العملية بالتمايز الشديد عن أولئك "الموحدين"، سواء فى الحضر أو التجمعات الزراعية، والذين رأوا "الإسلام بديلا عن البيزنطية أو الساسانية كهوية سياسية، وبديلا عن المسيحية واليهودية والزرادشتية كانتماء دينى ... وقد انصهرت الصفوة القديمة، وكذا الطبقة الإدارية لكل من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية فى النظام الجديد".

وبذا، فقد جرت تحولات غير مسبوقة على امتداد أراض شاسعة فى أقل من قرن واحد. وكما قرر لابيدوس :

"لقد تحول العرب من عشائر بدوية وقبليات إلى جماعات "حضرية"، كذلك تم الاختلاط والمصاهرة مع غير العرب، كما شغل العرب مهاماً ومناصب مدنية،

وخفتت حدة احتكارهم للإسلام. وبالتبعية، انضم غير العرب لصفوف الجند والخدمة بمصالح الدولة، وتحولوا إلى اعتناق الإسلام متبنين اللغة العربية، وطالبوا بنصيب لهم فى الحكومات المتعاقبة بالإمبراطورية كأكفاء بعد أن كانوا، فى السابق، مجرد رعايا لا يحق لهم المطالبة بذلك الامتياز".

كذلك، فقد أملت الأقليات المستاءة من الحكم البيزنطى والساسانى وغيرهما فى أن يتحسن وضعها تحت الحكم الإسلامى، وقد أثبتت الأيام والتجارب فى ظل الخلافة الإسلامية صحة تلك الآمال. وبلا شك، فإن الخوف من المنتصر قد يجبر البعض على اعتناق دينه ومعتقده، كذلك تكون الرغبة فى المداهنة والتزلف لكسب رضا السلطات الجديدة بغية اجتناء ثمار ومنافع - دافعا لاعتناق الدين. أما الذين عاشوا كثيرا كأقليات، فقد بدأوا يلمسون فوائد جمة إن هم اعتنقوا دين الأغلبية وأصبحوا جزءا من الثقافة السائدة، للتمتع بالحماية، والإفادة من الحراك الاجتماعى الجديد. كذلك، يذهب البعض إلى الالتحاق بصفوف الجند ضمن حملات الغزو الإسلامى بدافع المغامرة واقتسام الغنائم والأسلاب.

بيد أن عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تلك لم تكن بالسرعة التى تم تصويرها والترويج لها، فقد أظهر بحث لريتشارد بولييه، من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، عن معدلات اعتناق غير العرب للإسلام - بطئا فى تلك العملية خلال القرن الأول الهجرى. ففى ظل خلافة الدولة الأموية، لم تزد نسبة من تحول للإسلام من الشعوب المهزومة عن عشرة بالمائة، وبمقارنة تلك النسبة بنظيرتها فى ظل خلافة الدولة العباسية ذات التوجه متعدد القوميات، نجد أن الأخيرة قد ارتفعت من أربعين بالمائة إلى مائة بالمائة تقريبا مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى.

كذلك، فلم تتحول جميع المجتمعات نحو اعتناق الإسلام. فقد أظهر وجود جماعات مسيحية كبيرة من طوائف شتى على امتداد الشرق الأوسط، بالإضافة إلى الجماعات اليهودية - أن "أهل الكتاب" كان لهم مطلق الحرية فى اعتناق الدين

الجديد أو عدم اعتناقه بأن يظلوا يتعبدون كنصارى ويهود ويؤدون الجزية، وبذلك يعفون من الانخراط فى صفوف العسكر ويتمتعون بحماية الدولة الإسلامية. وفى ظل خلافة الإمبراطورية العثمانية، بعد ذلك بألف عام، ظلت الغالبية العظمى من رعايا الدولة فى البلقان على دينها المسيحى، ولم يحدث تغير ملحوظ فى مجريات حياتها أو ممارساتها للطقوس التعبدية الخاصة بها.

إذا، وتحقيقا، كانت عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تتسم بالتدرج، ولم تستتبع إحداث تغييرات كبرى أو فجائية فى الحياة بإقليم الشرق الأوسط، حتى وإن شرعت حضارة إسلامية عالمية جديدة فى الانبثاق وئيدا. لذا، كان الأثر الدينى أقل درجة من أثر التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد شهدنا عناصر الاستمرارية فى شخصية الشرق الأوسط السياسية والاجتماعية والجيوبوليتيكية مع الانتشار والهيمنة التدريجية للإسلام كدين جديد. وبذا، تبقى المقولة السطحية : "الإسلام فى مواجهة الغرب" أو "الإسلام إزاء المسيحية" غير ذات معنى كونها فارغة من أى مضمون أو دلالة.

ولقد أسهم الإسلام فى تغيير المناخ السياسى بالمنطقة، إلا أنه قد تأثر أيضا بذلك المناخ. فباشتمال الدولة العباسية على عناصر متزايدة من الإثنيات والثقافات واللغات من الأندلس غربا وحتى جنوب آسيا ووسطها شرقاً، فإنها أخذت مظهرا كوزموبوليتانيا بتوظيفها لمهارات تلك الشعوب ومواهبها. ولقد ساعد رجال اللاهوت والفلسفة والمفكرون النساطرة والسريان فى إرساء دعائم الثقافة بالدولة العباسية. كذلك، فقد كان للبطريرك النسطورى فى كنف الإمبراطورية الإسلامية سلطة وتأثير كبير إبان الدولة العباسية. كذلك، فقد كانت ثمة عوامل نهضة ثقافية وحضارية تختمر ... تلك النهضة التى أدت إلى احتلال الحضارة الإسلامية مكانة سامقة وشأوا بالغا على امتداد العالم بأسره فى تلك الآونة، وخلال قرون أخرى لاحقة.

كذلك، فمن المشاهد هنا أيضا عملية هامة من الدمج والانصهار حيث تشربت

الثقافة الإسلامية، وعلى نحو تدرجي، بالثقافات والتقاليد واللغات والفنون والتجارب وتاريخ الشعوب المتاخمة، بما جعل الإسلام جزءا من الإقليم وليس مجرد صنيعة عربية تم فرضها على المنطقة. أما انصهار الحضارة الإسلامية وتكاملها العميق مع أقدم أقاليم الحضارة في العالم فيشير، وفقا لعدة أوجه، إلى سلسلة متواصلة الحلقات من المخزون الحضاري والتشابه الثقافي والتوجه المشترك. فلم يتحول الشرق الأوسط على يد الإسلام إلى كيان جديد كل الجدة، وإنما أضاف إلى رصيده، على نحو بديع، طبقة جديدة من الحضارة والثقافة المتمثلة في الإسلام، ليراكمها ضمن فسيفساء عميقة الغور بالغة الثراء.

لذا، فإن أشكال اندماج الإسلام والحضارة الإسلامية مع تقاليد حضارية وثقافية أخرى تعد جزءا هاما من رؤيتنا وفهمنا للمقولة الذاهبة إلى تعانق مسيرة المعطيات الجيوبوليتيكية والمتغيرات الثقافية بالإقليم. فلو لم يكن ثمة إسلام، فإن أغلب تلك القوى والمعطيات كان لها أن تستمر وتبزغ، كما كانت الحال حين ظهر الإسلام وأضاف طبقة جديدة من الحضارة والثقافة إليها. كذلك، فإن الكثير من التوترات الجيوبوليتيكية قد ظلت سارية. ولا شك أن الإسلام كان قادرا على توحيد تلك الأقاليم بنمط حضاري مشترك أثبت قابليته للاستمرار بجدارة حتى يومنا هذا، بغض الطرف عن التغيرات في الخريطة السياسية للإسلام.

كذلك، فقد رأينا كيف كانت الهرطقات المسيحية المتنوعة تعمل كمحركات أيديولوجية للمقاومة المحلية ضد هيمنة روما والقسطنطينية، فمن غير المستغرب، إذاً، أن نجد مشكلات الهرطقة ذاتها، وقد استمر وجودها في ظل الإسلام. فإذا أخذنا شمال إفريقيا كمثال، لوجدنا أنه بينما توغلت الجيوش العربية "السنية" بامتداد ساحل المتوسط بالشمال الإفريقي لترسي هيمنة عربية، رأى الأهالي، وأغلبهم من البربر بلغتهم وثقافتهم وتقاليدهم المتميزة – هذا المد للهيمنة العربية باعتباره تهديدا إثنيا وسياسيا بالأساس. وكنتيجة لذلك، فعندما تم تدشين أركان الحكم الإسلامي الجديد هناك، عمد البربر إلى اعتناق الفكر الشيعي وأفكار

الخوارج. وقد مثلت تلك المذاهب الإسلامية غير التقليدية ضربا من الاحتجاج ضد القوى العربية السنية التقليدية.

القـوة المستـدامـة

أن نشهد مدى توغل الفتح الإسلامي بفضل المهارات الحربية والاستراتيجية، فهذه حقيقة ... أما قدرة الإسلام على الاحتفاظ بقوة مستدامة وتغلغل داخل أقاليم شاسعة وثقافات متباينة وشعوب شتى إلى الآن، فتلك حقيقة أخرى تثير الإعجاب. على أننا يمكننا أن نعزو ذلك إلى مجرد تفوق القدرة العسكرية الإسلامية عبر القرون. فلماذا لم تعد سوريا، على سبيل المثال، إلى اعتناق المسيحية، أو أى من ديانات أخرى سابقة، بعد أن ضعفت شوكة العرب لاحقا؟ ولماذا لم تعد إيران لاعتناق الزرادشتية حين ضعفت الدولة العباسية ثم انهارت على أيدى المغول؟ فإذا كان الإسلام قد أجبر تلك الشعوب المتنوعة على اعتناقه، أفلا يكون لنا أن نتوقع قيام تلك الشعوب، فى مرحلة زمنية أو أخرى على امتداد الأربعة عشر قرنا التالية، بالثورة ضد الحكم الإسلامى لاستعادة معتقداتهم وثقافاتهم؟

فحين قامت جيوش المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى بسحق القوة الإسلامية فى أغلب بلدان المشرق، كيف تأتى للحضارة الإسلامية أن تنفض عن نفسها آثار تلك الهزيمة، وتبعث من جديد من الرماد كطائر الفينيق؟ هنا، فإن مرونة الإسلام كعقيدة وثقافة ونمط مجتمعى ونظام سياسى تبدو مذهلة، حتى فى أدنى مستوياتها. إن ترابط المجتمعات الإسلامية وتلاحمها فى وجه مختلف الظروف والحوادث إلى يومنا هذا، بما فيها، الكولونيالية الأوروبية والحروب الكونية والحرب الباردة – تشير إلى وجود "رابط حضارى" ينتظم عناصرها ويقيها من التحديات الخارجية، حتى حين تأخرت الحضارة الإسلامية عن مسيرة القوة والتقنية التى قادها الغرب فى العصر الحديث. لذا، فإن الإسلام قد ساعد فى تماسك الإقليم واتحاده فى ظل ثقافة وحضارة راقية مشتركة. بيد أن المشاعر

والمواقف تجاه الغرب وروما وحتى القسطنطينية لها أصول موغلة وجذور ضاربة سبقت ظهور الإسلام واستمرت أثناءه.

إن رسالة الإسلام المباشرة قد خاطبت مشاعر الجماهير التى آمنت بها. كذلك، فإن بساطة الإسلام ووضوح عقيدته، بالمقارنة بالطبيعة المركبة للمسيحية وإلغازها وعسر استيعابها ذهنيا، وهو ما يتضح من المجامع الكنسية اللانهائية ذات الصبغتين الدينية والسياسية – قد عملا بما فيه صالحه. إن سحر الإسلام كعقيدة وانتشاره السريع قد يكونا السبب فى خوف القوى المسيحية منه، ومحاولاتها المبكرة وصمه بعكس ما هو عليه من روحانيات. وبينما نجد أن جميع الحكام بإمكانهم استخدام الغلظة والقسوة فى إدارتهم لشئون ممالكهم ومعاملتهم لرعاياهم، فإننا نلفى الصيغة الإسلامية للحكم وقد بزت تلك المعتمدة من قبل خصوم الإسلام فى أغلب الحالات، من خلال رؤيتنا للمدى الزمنى الممتد الذى سادت فيه تلك الصيغة بنجاح وسداد. ذلك أن السيف قد يكون له كلمته فى البداية، ولكن تعن الحاجة إلى مهارات الحكم الجيد فيما بعد. انظر كيف انهار العديد من الإمبراطوريات العظمى.

فبتسيده السياسى والدينى فى إقليم الشرق الأوسط، نجد الإسلام قد جاء ليتواءم مع المعتقدات والأفكار الدينية التى سبقته، ليمثلوا معا انصهارا للتالد والطريف من الأفكار ووجهات النظر. وهنا، لايستقيم الزعم بأن الإسلام قد جاء ليمثل قوة عدائية جديدة عمدت، على نحو مفاجئ، إلى تغيير الطبيعة الجيوبوليتيكية لإقليم الشرق الأوسط أو إرساء صنوف غير مسبوقة من مشاعر مناهضة الغرب. إن المشاهد أن الحضارات والتوجهات والأمور الجيوبوليتيكية التقليدية قد استمرت كما كانت عليه فى السابق، إلا أنها قد تزيّت بإهاب إسلامى. فلو لم يكن ثمة "إسلام"، أكان للأنماط القديمة من المناهضة السامية للحضارة اليونانية والحضارة البيزنطية الرومانية أن تخفت وتتلاشى؟